ولا معاهدة حتى ان المجرم العثماني المحكوم بخمس عشرة سنة كان يوالي بلاد العثمانيين بعد فوات الزمن يعود فرحاً فخوراً . اما المجرم النمساوي فكان يعاني الويل وصوله الى بلاد الدولة العثمانية . وما سبب هذه المشاحنة والغفلة السياسية الا الخوف من تكبير جو الزاهية على زعمهم كأنه من الممكن اجتماع الشرف والتفاضل السياسي !

نابلس حسني عبد الهادي

الجنسية

تأليف ماكس نوردو العالم الاسرائيلي الشهير نقلها الى العربية . م ع ج

كلمة المعرب

كل مطالع على مجرى الافكار العصرية في الغرب يرى مسألة الجنسيات او القوميات الشغل الشاغل لكبار الساسة وعلماء الكتبة وحول العلماء . ويكفي المرء ان يتصفح بعض الجرائد والمجلات الاوربية ليرى فيها ذكراً لهذه المعضلة الكبرى ووسائل كثيرة لحلها . وقد لقب الكتاب والمؤلفون عصرنا هذا « بعصر الجنسيات » لكثرة ما حدث ويحدث في ايامنا هذه من الجدال والمناقشة بشأنها حتى تعدت الى المشاكل والمشاحنات وكادت تجر الى الحروب . فهي اذن مسألة اليوم وكارثة الغد . لذلك رأيت من اللازم اطلاع القوم على ما يحمل ما وصلت اليه الآراء بخصوصها فلم اجد بحثاً ادق واتم من رسالة وضعها الالماني العالم الاجتماعي الشهير « ماكس نوردو » وصف بها هذه المسألة في جميع ادوارها وابدى من آرائه فيها ما هو جدير بالاهتمام فبادرت الى نقلها للعربية علها تفيدنا ولو بعض الافادة في احوالنا الحاضرة .

وماكس نوردو هو احد علماء العصر المشار اليهم بالبنان ، اسرائيلي الاصل المجري المنشأ اشتهر بتواليفه العديدة ورسائله الجمة التي امتاز فيها بالجد والدقة في البحث وبعد النظر والصراحة . ومن كتابه « معنى التاريخ » الذي احدث ضجة كبرى عند ظهوره وقد تحرى فيه الى الحقائق التاريخية والمؤرخين (والسقوط الشرقي) وهو مجموع بحث فلسفية اجتماعية عصرية مثل « الفلسفة الروحية » و (مذهب الاناجين) و (آخر القرن) و (القرن العشرين) ومن كتبه المسمى (اكاذيب مدنيتنا المتفق عليها) و (مناقضات الاجتماع) و (مناقضات علم النفس) ومن امهات كتبه العلمية (روح

ماهو اساس الجنسية ، وما هي علامتها الفارقة ؟ لقد كثر البحث في هذه المسألة واختلفت فيها الآراء . فقال بعضهم ان الجنس يعني الاصل العنصري . والخطأ في هذا القول محسوس بحيث يوجب الافة من الرد عليه . انا لا أعتقد بوجود الجنس البشري وانما الشعوب المختلفة أنواع ثانوية لجنس ، والاختلافات الشكلية والنوعية لم تنشأ عن تغير الجنس الواحد بسبب تأثيرات الاقليم بل منشأها الطبيعي تعدد الجنس . ويظهر لي ان الفرق بين الابيض والحبشي أو بين الباپو [1] والهندي ليس أعظم من النسب بين الفيل الافريقي والفيل الهندي أو بين الثور وبين الجاموس الاميركي . ولكننا قلما نجد في جنس واحد كالابيض مثلاً من الاختلافات البالغة ما يسمح لنا بوضع حدود فارقة وحدود بين أشكال الجنسيات المتنوعة . يوجد في كل شعب ابيض أفراد ذوو قامات كبيرة او صغيرة وشعور زاهية أو قاتمة وعيون زرقاء او سوداء وخامات مستطيلة أو عريضة ومزاجة باردة او حادة ، ولئن روى بعض هذه الصفات متغلباً في شعب وغير متغلب في شعب آخر لانجد في الصفات الطبيعية او العقلية أقل معنى صحيح لتمييز الفرد ونسبته الى جنس محدود مثلما نجد في الشعرة السوداء وشكل الوجه وتجعد الشعر من تمييز الحبشي ونسبته لجنس محدود

ان جميع التجارب التي جرت لايجاد (شكل متوسط) خاص لكل شعب لم تجد اقل فائدة عملية . ولقد تكون قراءة اوصاف هذا « الشكل المتوسط » لذيذة تهيج فينا عاطفة « حب الذات » لكنها في الواقع لا تخرج عن حد التخيل . على ان خطوط ذلك الشكل لو كانت غير خيالية ليست سوى رسوم ظاهرية في المرء — لاصلة بينها وبين حياته الداخلية — طبعت على بشرته ويمكن ان تمحى عنها متى تقدم في العمر ، انها لاترسم عليه اذا نقل وهو طفل الى بيئة غير التي ولد فيها وعرض لتأثيرات جنسية غريبة . ان (شاميسو [2]) مؤلف كتاب « بطرس شليمل » أو « الانسان الذي اضاع ظله » كان غلاماً متأدباً ايام لم يكن يعرف من الالمانية حرفاً فاصبح بعد ذلك شاعراً المانياً يضاهي اكبر شعراء الالمان الذين يزعمون ان دم الجرمان القدماء (صيوف

---

(١) الباپو : أحياش اوسترليون يقطنون جزيرة الجديدة وبرنيا الجديدة وارخبيل سليمان وجزائر هبريد من قارة اوسترالية .

(٢) أديب وعالم طبيعي من أصل افرنسي نشأ في المانيا وتجنس فيها حتى اصبح يعد من فحول ادبائها وعلمائها العظام (١٧٨١ — ١٨٣٨)

تاسيت (١) يجرد قدميه وامرؤخ (شيشيه (٢)) ولا اعني ذاك الافرنسي المتحمس بل الفيلسوف الالماني) بما ظهر فيه من الصفات العقلية التي عدها « علماء الانسان » من مميزات الجرمان : كالحصافة ، والجد الادبي ، حتى التعقيد في الانشاء ! والمفكر « جول دوبوك » العريق في افرنسيته — كان أبواه يفتخران بدمهما الافرنسي الخالص — وهو الذي اشتهر بكتاباته بالطريقة « الأيديالستيه (٣) » الالمانية خاصة ، و « دوموارتوند (٤) » الافرنسي الذي اصبح المثل الاعلى للعالم الالماني ، اما « تيودور كوانسان » فانه لم يكن المانياً فقط بل « المانياً شمالياً » بأملاته الطبيعية وتحليله للنفوس ... الخ الخ وهكذا قل عن اي شعب اوربي شئت فانك تجد فيه مثل هذه الحوادث شيئاً كثيراً

من ذا الذي قرأ مؤلفات « لوثر اولباخ » و « اوجين سوار » — مؤلف رواية LA MOINNETTE — و « شولر » و « دينر » ولا يعتقد انهم افرنسيون الفاح؟ بل من ذا الذي لا يرى في مؤلفات « مرتزبوخ » و « بيكر » صفات شعراء الاسبان؟ او من يرى في « دانتي (٥) » شيئاً غير انكليزي حاشا ان قد يكفي ان يعيش المرء

(١) (تاسيت المؤرخ لاتيني عظيم ولد بين عام (٥٥ و ١٢٠) قبل المسيح وألف كتباً قيمة عن تاريخ الجرمان ووقائعهم واخلاقهم . وتمتاز مؤلفاته بسلامة الذوق وفصاحة العبارة ودقة النظر

(٢) المؤرخ افرنسي كبير ولد في باريز وكان يعلم التاريخ في كليتها الكبرى وبالنظر لطريقته في التدريس مرتين وقد ترك كتابه « تاريخ فرنسا » و « تاريخ الثورة » روح الحياة الوطنية في الفرنساويين (١٧٩٨ — ١٨٧٤)

(٣) الايديالسم : مذهب فلسفي ادبي ينكر حقائق الاشياء مجردة ويعتقد انها ليست سوى صور فكرية لا تنفصل عن نفس المفكر .

(٤) اديب فرنسي ولد في (تروا) وله مؤلفات حجة في القصص والادب

(٥) دانتي شاعر ايطالي شهير ولد في (فلورنسا) وولي اعمالاً سياسية خطيرة ثم نفي فسكن باريز مدة وعاد الى (راڤين) فيها (١٣٢١ — ١٢٦٥) نظم قصائد عديدة بث فيها غرامه المبرح في (بياتريس) ابنة (فولكو) ولاجلها الف كتابه المسمى « بالحياة الجديدة » لكنه اشتهر خاصة برواية المشهورة « الكوميديا الالهية » وقد نال بسببها لقب امير الشعر الايطالي .

في أمة ليتمتع بحقوقها والحلائق الجيدة والحميدة دون أن يكون بينه وبين الأمة رحم وان حرمت ما يناقض هذه الحقيقة في شخص بعض الأفراد ، وإنما الذي يجب بحثا دون أن يبحث عما اذا كانوا أو لم يكونوا متأثرين بأحد مصدرين أو بهما معا في احتفالهم .

من البديهي أن نحيل أن أبحث في « شامبيون » مثلاً عن مقومات الشعب الإفرنسي قبل أن أبحث فيه عن السبب في ذلك من دراسة لتلك صور الخواطر التي أراها تتطور بأبطالها في أفكارهم من الصور الملائمة ، وهي بعبارة أخرى تريد أن تعرف المؤلف وأحد الناس الإحاطة التي لم تتوفر في الكتاب أن يبقى في رأي فكرة وطن أحداده فيحيل إليه الذي الواجب عليه أن يكون ذا أطوار الذكرة بذلك الوطن وبسبب الاحتفال الذي عن تلك الفكرة زاد لا يجيء بغير سيئة طبائعه — من غير أن أعرف — وإلى أطوار تعرض صناعية حتى يكون ممثلاً لوطنيته الأصليين ، والصعوبة في هذا الأمر أن الإنسان يجيء في صدق في وطنه الحقيقة بل يلتمس الصفات التي يتسنى الاتكال عادة بوطنيته خطأ .

فالجنس اذن لا يتبع الوراثة في جنسية محدودة بل ان أحفاد المهاجرين الذين هاجروا الى مقاطعة (ترانسفال) يرجعون اليوم من أحسن الأمثلة وأبلغ مستمسكات « استردام الجنسية » من الهولانديين هم الآن أحق أن يكونوا شيئاً من الانجليز من الأمريكان الانجليز في « الجزر » والجزر « وكثرة المهاجرة » حركة الأفراد والجماعات جمعت بين العناصر المختلفة في بادئ الأمر بين جنبيها مزجاً عجيباً فاختلط الانجليز وجميع نزائع الأمم الحية تظهر عند الاختلاط بعضها الدم ، فلا بد لي من ضروب التفاعل سيئة قبول الأجناس في تأثيرها وتجاربهم بحيث يكون لكل منهم من الحقوق والواجبات ما يرتبها الاصليين

ولما كان أساس الجنسية التي هي الانتماء بالحياة على الانسان أن يكون ، حاولوا أن يجعلوا لها أساساً تاريخياً فقالوا : انها تكون للأمة هو مكان ولادة ومستقبل ، هو حياة العامة في نظر حكومة واحدة وبأمر واحدة ، هو ذكرى أفراح وأتراح تاريخية لوراء الأمة سواء . هذه القضية في أنها من الأمور الاعتبارية التي لا صفة لها بالعقل مبدأ الخواطر — بل من شأن من الوجدانيين — تعليلها — انها اذا كان يشعر به ويوفي الأمر من مشاعر الإنسان الوجدانية ، فذلك

نيف وألف عام في حياتهم وشرائعهم وحكومتهم السياسية . واسأل اي (فيني [1]) او (سيوي) — كذا يلقبون انفسهم — هل يعتبر نفسه اسوجياً فالمندبا مع انه يسا كنه ويعيش معه تحت ظل حكومة واحدة منذ اكثر من الف عام ايضاً . نعم ان اتحادهما في الشرائع وفي الحكومة ولا سيما في العادات والاخلاق مما يستلزم تآلفهما وينبه فيهما عاطفة التضامن والتكافل . وكل عكس مايجري مع اليهود فانهم قلما تستبرهم الامم التي يعيشون في حضنها حيناً من منها . وذلك بانهم لا يزالون متعلقين تعلقاً اعمى بعادات اجدادهم — كاستعمالهم البيضات ، وتعظيمهم ايام الاعياد والبطالة ، واحترامهم الشريعة الخاصة بالمآكل واتخاذهم السكين . . . الخ — التي تخالف كل المخالفة عادات مواطنيهم المسيحيين والتي من شأنها ان تلبث في هؤلاء عاطفة الاستقلال والافتراق عنهم . فمثل هذا الاتحاد قد لا يكفي لان يؤلف من شعوب شتى شعباً واحداً ذا جنسية واحدة

كلا ان هذا الا تعريف لا تثبت الحقيقة ان تبدده ، وما اندر ما يظهر منشأ الانسان الطبيعي مرسوماً على محياه اذ القاعدة التامة تنكره ولن تقوى على اثباته . انه لا يشعر به في نفسه ، وكل ماقيل في حق (صوت الدم) ليس الا سفسطة يبني عليها القصصيون خيالاتهم ، وليس للشرائع والادارات السياسية وحدها من القوة مايكفي لتحديد الجنسية على مالها من التأثير في تهذيب اخلاق المرء . وما يحدد الجنسية في الحقيقة الا اللغة . فبها وحدها يصبح الانسان عضواً في جسم الامة وفي وحدها تحوله الجنسية . فللمثل حق التمثيل مكانة اللغة بفرد وحظها في تكوين وجوده وفكره وشعوره ومظهره الانساني

واللغة بتكييف نظر الانسان حسب نظر الشعب الذي هذبه ورقاه واودع فيها وسبق تركيبه ادق حركاته الفكرية وارق خصائص عالم تصوراته ، باللغة يصبح الانسان ابن الشعب ووارث مفكريه وشعرائه ومؤديه وقادته ، باللغة يخفض المرء جناحه لأدبيات الشعب وتاريخه بفضل مايؤثران في جميع افراد ذلك الشعب فيجعلانهم سواء في السرور والعمل . حقاً ان اللغة هي الانسان نفسه . بها يدرك صفات الحوادث الكونية العامة ، وبها

(١) (الفينيون) قبائل قطن شمال اوربا وآسيا ومنهم (اللاپون) و (الاوستياك)

(٢) المقدس : لذلك كان ناكس نوردو واضع اساس الصهيونية وهي ان يكون للاسرائيليين جامعة سياسية في فلسطين يؤسسون فيها مملكة مع الزمن تعيد مجد اسرائيل كما وردت البشارة بذلك في التوراة

وثم في العالم الخارجي . الاوان فرداً واحداً من بين ملايين خلق يفكر بذاته ويلبس لأثيرات الحواس فيه صوراً تخصه بمعزل عن الملايين من اخلق غيره وذلك الفرد عند علماء هذه الكتب ، في افكاره عما وصل اليهم منها واصله واحد . كان فرداً واحداً بعقل واحد وبحث مشترك في الناس والوجود بأمثاله الآخرين . وملايين الخلق تحصر اقوالها في اضيق ما وصلت اليه علوم الارض الى يومنا هذا في لغة ما من اللغات التي تجمع بين الناس . والحوائل شديدة الانفصام بين واحدة للملايين وبين احداها عن الاخر اكثر من شخصين عزيزين القلب لأول بعلاقة ذاتية بلغة واحدة

قد رأينا ان الانكليز اميركي الشمال بدأوا يحرمون في بيعهم لاختلاف الفوائد وكيف سرعان ما يقدمون فلا يلبثون ان يحرموا . ثم رأينا حينما بدأ بين امة واحدة هي انجلترا الملكي الانكليزي الشمالي حرب واشتد سعيرها بين الموالين والمناوئين عام ١٨٣١ الى يومنا اليوم كم ملك هذا الاتجار اهالي كثير . ولما حارب البورير الانكليز او لما يزالون اليوم عن القسم من اهالي المستعمرات الانكليزية كان ملك الموالين يحارق في الملايين وقد كانت الملايين من هولاندة وحكومة الرأس (الكاب) قد انطمت بالآلاف من البورز . فزيادة على الشرائع والعادات والاخلاق اذكر التاريخ من اشتراك الجيكاوسو بسواد الرأس (١) في الدفاع عن فرنسا حرب السبعين . وعلى الرغم من كره البروسيين الاحتلال الفرنسي الذي توصلوا الى التخلص منه اخيراً وبقاء شيء من ذلك الكره الى اليوم عند ذوي رأينا البروسيين ان حرب (غليوبك — هوشتاين) (٢) لم تكن عامة الى عصرنا من الاحتمالات سوى زلة صغيرة في لغة ، واعتصاب يأس من رجله .

* * *

وظلة انى لي الهة حين من الدهر ما تكن شيئاً مذكوراً وظلمته حين كان الناس في دورة الاحقاب لا وظيفة له غير السخرة . وأدبة الفراعنة يا كان الامر والنهي في ايدي فئة قليلة من الناس ، وكان رضى رجل التعس لا حيلة له فيه . وما زالت هذه الهة الالهين وصنم الحضارات وكتلة من ذرات شيطانية وتلعن مثاراته ؟ الا ان بكن يخطئ تقديرنا في الشر بوجوهه الثلاثة ويكون يعرفه من ناحية الكم منه .

(١) هم الطبقات دانيس كيبان اشارت عليهم بوجوبها واحقتها بها عام ١٨٦٩ .

(٢) لم تفهم غرض المؤلف من هذه الاشارة .

بما السياحة والاغتراب . ورؤية الغرباء في بلده أمر غير معهود . ولما كانت حكومة ذلك الوقت تستعمل غير السوط تكلمهم به دون ان تعمد الى العصا او معجمات اللغة . وكانت الديار اذ ذاك بقعاً خالية من المدارس . وكان رجل الشعب المطالب بحق من حقوقه في محاكم لا يستطيع الافصاح عما يكنه صدره امام القاضي فلا يرى ثمة وسيلة غير الاستعانة بمحام يدافع عنه وما كان مأمورو الادارة ليسقوا الى مبادئ الشعب الحديث او مطارحة الشؤون وكان الشعب في الكنائس يطفح قلبه بالعواطف التعبدية فلا يقدر على الافصاح عنها وذلك لان الكنائس كانت تمثل له الاله كسيد كبير اجنبي لا يعبد الا بلغة اجنبية — اللاتينية — بواسطة قساوسة علماء في تلك اللغة فلم يكن من حاجة للفرد ولا في وسعه ان يخرج من مأزق الحالة الوراثية التي نشأ عليها الى محيط افسح مستعيناً بالكلام . وعندما ظهر شيء من الاستقلال في بعض المدن والدساكر اخذ السكان يجتمعون فيتحاورون ويتناقشون في امورهم وهناك كان لغة دور مهم اذ تفرق الناس شعوباً وقبائل بحسب اختلاف لغاتهم متنازعين فيما بينهم على السيادة والامارة .

اما طبقة الاشراف فما كانت تهتم باللغة لاسباب منها ان حقوقهم في السلطة كانت مضمونة لهم منذ ميلادهم . فكانوا سادة امراء دون ان يفتح الواحد منهم فمه او يجر قلمه . اعتبر ما حصل في ايامنا في انكلترا التي لا تخلو تقاليد حكومتها الحالية من بعض عادات القرون الوسطى . اذ ان هولاندياً من سلالة (ايقومي) — الوردراي — اصبح فجأة سيداً من اشراف انكلترا وعضواً في مجلس اللوردات وذلك لخلو مائلته من وارث انكليزي ذكر يرث هذا اللقب العظيم ... بمعنى انه اصبح ذا حق في الحكم النشري في المملكة البريطانية دون ان يكون وطنياً انكليزياً او ان يعرف كلمة واحدة من اللغة الانكليزية !!! ولما كانت بعض الاحوال العامة تضطر الشريف الى الظهور كان هذا السيد يتكلم باللاتينية او ينيب عنه امين سره في استعمالها .

في مثل هاتيك الاحوال كانت الجنسيات محدودة لان اللغة نفسها كانت محدودة اما في ايامنا هذه فقد صارت الامم شوطاً بعيداً حتى في روسيا والعثمانية فللفرد اليوم حر وله الحق — مهما كانت منزلته — ان يرقى ويعلو المنزلة التي شاءت الاقدار ان يولد فيها . اصبح العدل شفهياً والادارة مفتحة الابواب لكل الناس لتقبلهم في احضانها وتساعدهم بتعليماتها ، وكذا المدرسة والجيش . وقد سهلت البروتستانتية على الشعب عبادة ربه بلغته واستماع المواعظ والتعاليم الدينية بها . فصارت مزاولة الكلام لازمة

لكل حرفة ومهنة حتى اعظم العظام ورجال الدولة ان الملوك انفسهم لى تعود جهة للعلق وارتجال الخطب . وهكذا اكتسبت امة بكاملها عطلي حتى ان كل شاب وضع في حبيل استعدادها لكل ضغط يدل استعمال غيرها من الملات الاجنبية بشعره الفرد لكمال الحق به واستعمال بشرته .

...

انه من بعيش بكيفية بين مواطنيه في دولة يرتبط جميع افضائها بعضوية واحدة والذي لم يتم الا بعمل من عدة اعمار لا اقدر قيمة تلك الجنسية . انه كمثل الذي لم يشعر بمرض هل لكل فرنسا الاوصاب والامراض او نقص او نوع الآلام والعذاب التي تشعر بها وتقدر مكانتها ؟ . . . ان عاش في الخصاصة فيه جنسيته والتفت غير الحكومة ، يرى نفسه مضطراً لعمل امور اجنبية لا تتعمل الا الاجنبي — فاذا لم يشأ ان يفقد خصوصيته او نقص الوظائف الادبية والتي تخولها الدولة لبعض الاشخاص كاحد قيد الدرس او مطلق او كاحد الحرس من المحكوم عليهم بالخروج من حقوقهم المدنية والانسانية . . . هذا الذي يضطر لخروج وتغيير الرأس امام جنسية اجنبية ، يقدر مزايا الجنسية الخاصة ويقدرها ! ليس الحرمان من حقوق الشرف التي تحكم بها بعض القوانين شيئاً مذكوراً في جانب الحرمان من استعمال لغة ليس تصعيد الاذن والأرجل والانفلال واشد من عمل الحسان ! هناك يحاول المرء ان يجاري من حوله فلا يستطيع ! ويتأكد انه في امكانه ان يكون بليغاً ليس له مضطراً الى ان يوطن لسان العجمي . بل يرى نفسه محروماً من اقوى الوسائل التعاون تتألم له العبقرية بشعره بقطع مفاصل الاوصال !

اما الذي يوقف نفسه لايرضى لها مثل تلك الاحوال . ومن ذا الذي يقوى على الكبرياء نفسه صاغراً ؟ بل من ذا الشخص يرضى لان يعيش عيشة خالية من افضل المزايا والمسلمها ، وهي استطاعة ابداء مقتضى رأيه التفاني الشعور والفكر ؟ نحن نرى بعض ابناء الملتقى الذي انتقد يطرح نفسه تحت مجلات مركة [حاخامات (١)]

(١) حاخامات امة حديثة في جميع دولة والشهر للذين القدسية بيت للمقدسة سكانها . . . الف ، يحج اليها كل عام نيف وعشرون الف زائر يأتون اليها من اقاصي الجهات الآسيوية ليتلو العيد الاكبر يطوف الزائرون بركة اليها ضمن معبد عرفيتها الى اليهودي من اهدافه ان طرح الفهوم تحت مجلات يقضي اشهراً

طمعاً في ان يحيا حياة اخرى افضل من الاولى ، فما علم يقين ان (الفقير (١)) يأتي استخدام بعض اعضائه ويعيش سنين عديدة كنصف انسان او كانسان مقعد وذلك لانه يجد من نفسه دافعاً ومن الغير الموعود به مشجعاً ان هو قدم حياته فله قربانا ولكنا لانقدر ان نتصور اولئك الذين يولون جلسيتهم الادبار ويرضون باستعمال لغة اجنبية يرضون بها طول حياتهم بان استهزاء الآخرين بهم وخجلهم الدائم من انفسهم واما الذين يأتون بتضحية مثل هذه جبناً او عجزاً او عن حماقة فمندي انهم يستحقون الشفقة لا الذين يبذلون لغتهم اي — أمانيهم — وذاتيتهم المفكرة ويتسربون الى اعاب احتي طمعاً نيل بعض المآرب فاولئك هم المذمومون المقوتون بل هم أدل من (السكوتي) الروسيين Skoptzi الذين يخصون انفسهم لاعتقاد ديني اما الاولون فيخصون انفسهم عقلياً طمعاً بال او بما يوازيه .. حقاً اننا لانجد كلمة تقوم بوصف هذا الانحطاط الاخلاقي!

...

ومن حظ الالسانية وشرها ان اولئك الاذلال هم الاقلون . اذ الاكثرية تتمسك بلغتها وتذب عن جنسيتها كما تذب عن حياتها . ان للشعب المتسلط ان يشرع قانوناً يجعل به لغته لغة الدول ويسقط لغة المغلوبين لكي امرهم حتى تصبح خليطاً نابياً للسوقة لايدخل المدارس ولا الكنائس ولا المحاكم ولا المجالس . فان كانت هذه اللغة راقية او منتشرة في بلاد اخرى ، ذات ادبيات وحظ وافر في التعبير عن مظاهر الفكر الانساني سواء في السياسة او في العلوم فانها لن تخضع لهذا العار . اذ تصبح الجنسية المضطهدة عدوة الشعب المضطهد بعض كفء الذي يحاول ان يكبها وتصبح مستصرخة تريد التكلم الذي باباه عليها اغصبها وبعد اليأس تحاول ان تهدم بنياناً سياسياً كان سجنها عوضاً عن ان يكون مجاها .

قال احد هرابي الفرنسيس : لاوسيلة في الدنيا تقنع رجلاً تام العقل بان يسلم رأسه تحز بالمقصلة (الغيلوتين (٢)) ونحن نقول بانه لاشريعة في الدنيا تقوى على اقناع او ارغام شعب راق يشعر بوجوده ان يتنازل عن انه وعبقريته . والدولة المؤلفة من جنسيات شتى لابد ان تقع في منازعات وحروب داخلية لاتستأصل الا وسائل

(١) الفقراء طائفة من متصوفي الهند لاعمل لهم الا التسول .

(٢) الغيلوتين آلة الاعدام عند الفرنساويين قديما

راديكالية اي اصلاحية مطلقة اسمها (اللامركزية) المعلقة وسم من عليها . لكنها وياللاسف لم تخرج من نظرية معقولة تحيا بعض الساعة ولا يمكن تطبيقها على مجرى الاحوال . وبالتصوير النظري الى اي درجة يجب ان تصل اللامركزية ، لكي ترضي جميع الجنسيات المختلفة في دولة واحدة ويلزمنا ان نعرض لكل فرد الحق بتقلد الوظائف عامة في جميع جهات الوطن وان يشترك في الحقوق المساة بحقوق الانسان وحقوق الوطني) دون ان يضطر الى استعمال لغة غير لغة أبيه واجداده فيجب والحالة هذه ان تستعمل في المصالح الادارية — من مكتب البريد في القرية الى النظارة — والعدلية — من قضي الصلح الى محكمة التمييز — جميع اللغات المتكلم بها في تلك الدولة . وهكذا يجب ان تعمل جميع هذه اللغات في المجالس النيابية — سواء في ذلك القرى والاقضية والولايات — كما يجب ايضاً تأسيس مدارس ابتدائية وثانوية وعالية لكل شعب وبالاختصار ان لا يضطر احد لتعلم لغة غير لغته لنيل ما يناله مواطنوه الآخرون فهل يمكن القيام بكل هذه الواجبات ؟

الجواب ان هذا الامر تما يستلزم تقسيم الدول الى اجزاء صغيرة ليس بينها اقل رابطة محسوسة ، ان مساواة تامة كهذه بين شعوب مختلفة في ظل دولة واحدة ليست ممكنة الا بين امتين فقط ، متساويتين قوة كما هو الحال في امبراطورية الاحيث يوجد عشرة او اثنا عشرة امة — كما هو الحال في دولة النمسا والمجر — مختلفات في اللغة وفي العدد وفي المعارف الاصلية بينها ، متداخلة بعضها في بعض اذ ترى في القرية الواحدة الثلاثة او اربعة اجناس واكثر من ذلك . ولا بد لدولة كهذه من لغة رسمية والشعب الذي تكون لغته هي الرسمية يصبح وحده حاكم البلاد . وهكذا تعدم المساواة التامة وتمتهن الشعوب الاخرى فتعيش عيشة منحطة . هنالك ترى بين الافراد الوطني التام ونصف الوطني ذاك تطلق الشريعة لسانه وهذا تلقي عليه نفس الشريعة بالكم . ومن يذكر تلك الاسطورة البابلية (خرافة الغرايب السبعة) التي جاء فيها ان أبنة ماتت من التكلم مدة سبع سنوات وان لسانها كان لآخر من ابسط حقوق الانسانية واعلاها يجد ان هذه الخرافة اصبحت اداة سياسية في أحوال لا تطاق كما في وصفها !

. . .

يعتقد بعض الحاليين من رجال السياسة انه سيأتي على الانسانية المتمدنة يوم لا ترى

فيه من حاجة الى الاوضاع الدولية الكبرى الا لحرب ولا امور خارجيه . هناك يؤلف الناس جمعيات كبرى أشبه بحالات كبيرة او جمعيات محدودة يتمتع الفرد فيها بحرية تامة ، ويكفل جميع اعضائها المساعدة الادبية والمادية الضرورية لحياة الانسان ويكون كل جماعة مستقلين عن الآخرين الا في المشاريع النافعة واللازمة لجماعات متعددة والتي لا تستطيع القيام بها منفردات فتتفق اذ ذاك تلك الجمعيات المتفقة وقتياً خاصاً بالغرض المطلوب . وحينئذ تلغى الجنسيات لان الجمعيات المستقلة تكون صغيرة جداً وموثقة خاصة من أفراد يتفاهمون بلغة واحدة . وقبل ان اختتم بامكان تطبيق هذه النظرية في المستقبل فانا افضل نظرية اخرى وهي ان البشر ما داموا سائرين في طريق التشوء العضوي لابد ان يستمدوا ذات يوم عن اللغة وعن الحركات الرمزية للافصاح عن مشاعرهم فتحل محلها حركة ذرات الرؤوس التي ستخاطب الارؤس الاخرى مباشرة بدلاً من الاشعاع او النقل المستمر ! اني لاضع هذا التشوء الروحاني وذاك التطهر الدولي في مستوى واحد من حيث جواز الوقوع ولكن سلما جدلاً بامكان حصول احد هذين الحليين قبل حلول الزمن اللازم لذلك قريب كما يدعون كلا انه لابعد مما يتوهمون . لاحرم ان الامم المضغوط عليها الى التمتع بهذا كما انها ان تسلم باستعمال لغة عامة . قد يمكن ان يستعمل بعض العلماء الراقين في الانسانية جمعاء لغة واحدة تامة لتبادل الافكار فيما بينهم . ولكن من الصعب التصديق بأن اقوالها متفرقين يعمدون على تعليم هذه اللغة المدرسية (لغة العلم) ويحتمون حكمها وسلطانها اذا اراد الراقون منهم ان يخفوا الشيعة اسرار العلم او يريدوهم على امر خطير او يبدوا لهم ما اوحى ضمائرهم من تخيل او تحريم فانهم يلجأون فقط الى إلباس افكارهم ثوب تلك اللغة الاجنبية التي تحرف اوضاعها ، وتغير اشكالها ، وتضيق عليهم نطاق حريتهم .

* * *

بقي امامنا بعد دحض ما تقدم وسيلة واحدة من الوسائل الراديكالية الآنفة الذكر الا وهي استعمال الشدة ان اعمال التذبذب والتجارب الناقصة والضغط الضعيف قلما تفيد شيئاً في هذا الباب . لاسيما اذا كان المقصود اغتصاب ملك أصلي قديم يحتوي على جزء جوهري من الذاتية كاللغة فالتنازع لأجل اللغة ليس الاشكلاً آخر لتنازع البقاء فيجب ان يعتبر مثله . اما ان نقتل عدوك او تقتل او تقهر ! وتنازع الجنسيات

ليس الا نكلة حادث طهر منذ قرون الى هذا الوقت من الصين ثم سكتت ثائرته مدة فقام اليوم من رقدته وشن حشه مريعة نحو الخارج . وسائل يسأل كيف اختلطت الجنسيات المختلفة وتداخلت بعضها في بعض ؟ وهذا الحوادث دخل شعب بلاد شعب آخر فلم يطرده منها بل بقيت اثنات من الشعب المغلوب بين الشعب الغالب ، او ان الشعب الغالب كان اقل عدداً من المغلوب فرق منه لاشئ قليل . هنالك يشتد التنازع بعد ان كان ساكناً فيضطر الشعب الغالب الآن يستجمع آخر قواه يدفع عنه الشعب المقهور او ان يعدمه اذ يحرمه ان ينه بالقوة الوحشية التي هي الاداة بيض الشعب الاروفي مدافعاً عن نفسه فيطرد الغالبين خارج بلاده او يضطرهم الى نبذ جنسيتهم .

وقد تأتي الحوادث على صورة أخرى كأن ينزح فريق من شعب عن ديارهم لانها لاتكفي لعيشهم فيقطنون دياراً غيرها . فان كانت هذه الديار خالية في الماضي ثم شاركهم في احتلالها مهاجرون من شعوب اخرى فالمحتلون الاولون ان يعتبروا المهاجرين في سبيل انتهم جزءاً من جموعهم في تعهد العايات الطبيعية اذ ارادوا الشراء دولة تكون لهم ملجأ حصيناً ويجب عليهم حينئذ ان يدفعوا عن انفسهم خصومهم كما يفعلون باستعمال السيول والثلوج والمخدرات والخمر والوحوش الضارية والجوع والبرد وان يعتبروا الحياة الطبيعية التي ظفروا بها في بلادهم والتي ضاعوها في غير وطنهم كنعمة تلهيهم عن جميع العايات الطبيعية والبشرية بعد ان عرضوا في سبيلها حياتهم . اما اذا كانت البلاد التي استوطنوها خالية من قبل فيجب عليهم ان يعرفوا الشروط التي بها نالوا الحياة . فان كان من تلك الشروط ان يبذلوا جنسيتهم وكانوا قد رضوا بذلك لضعفهم وجبنهم لايستحقون الشفقة . ولضعفهم ان يرغموهم على التنازل عن امتهم وراثتهم لقاء الخبز الذي يجودون به عليهم . واذا كانوا قد استولوا جزءاً من بلاد اجنبية دون ان يؤدوا ثمناً ما لذلك فالاحتلال يقتضي ان يكون عندهم الآن من الارادة والقوة ما يكفيهم لما كان يجب عليهم وهم في بدء احتلالهم لو قاموا بالمدافعة فاما ان يبرحوا الارض حالاً واما ان يعتصموا بحد السيف قطعة من البلاد او ان يبقوا في تبعية كانوا عاجزين عن الخروج منه .

...

على هذه الصورة تمثل امامي مسألة الجنسيات . هي كانحصار الخلص الأخير

لقصص تاريخية مجزة بدأ بعضها من زمن هجيرة الشعوب واكثرها عند ذلك بكثير . وقد طالت فترة مابين الفصول لكنها لن تدوم ، فالشعار ارتفع والكارثة على وشك الوقوع ، انها ستكون شديدة قاسية وكذا تكون مقادير كل كائن حي اذ الحياة جهاد لارحمة فيه . وليست هذه مسألة حقوق بل مسألة قوة في اعلى واعظم معانيها . وما من حق يفتطر الكائن الحي للتنازل عن الاسباب الضرورية لحياته ، ولا يمكن ذلك الا بالقوة ، والقوة سبب الدفاع والمنعة . وهل يطلب من الاسد ان يبرز صكاً يحوله الحق في افتراس الحمل . الاسد يغتصب الحمل اضطراراً وهذا مبدأ حقه في افتراسه . لاحرم ان الحمل الحق يقتل الاسد ان قدر عليه ... وحيثما تكون الحياة او ما يماثلها معرضة لخطر يتساوى الحق بالقوة وهذا ظاهر حتى ان الشرائع البشرية جميعها تبيح للفرد الدفاع عن نفسه أي انها تسمح له في بعض الاحوال ان يستعمل القوة في الدفاع عن حقه . اوليست الحرب حالة من حالات الدفاع عن النفس بين الشعوب لابين الافراد ؟ اذا رأى الشعب في بعض الامور ماهو ضروري له مد يده لامتلاك وحقه في هذا الشيء هو عين الحق الذي للاسد في إفتراس الحمل . فاذا شاء شعب آخر منعه فيجب عليه اذن أن يعارضه بالقوة بنفس الحق الذي له ايضاً . ولا وجه للغلوب بالشكي مادام له الحق باعادة الكرة مرة أخرى . فان قهر نهائياً واضاع الامل بالقوة في المستقبل وجب عليه ان يرعن للقضاء قائلاً : «خانت حملاً فيجب ان أعيش عيش الحمل ، هذا لو كنت أسداً ! ولكن من الحمق مشاكسة القطرة لانها لم تخلقي اسداً »

ان الشعب الذي يراد نزع لسانه لهو في حال الدفاع الشرعي ذو حق في المناضلة عن اثمن ملك لديه . لكنه اذا لم يملك قادراً على الدفاع فلا حق له بالتذمر والشكوى . كما ان الشعب الذي لم يطق ان لا دع الضعف يتطرق الى لغته بوجود لغة اخرى في البلاد وان لايسمح بما من شأنه ان يقلق راحته في المستقبل . فان لم يقدر على حفظ حقه بالقوة فعليه ان يعترف لشعب الآخر بتساوي الحقوق فيما بينهما وان يهبط عن تلك المنزلة العليا منزلة المتحكم ، وان كان تحكمه شرطاً من شروط حياته فاحكم عليه بالهلاك . وافي لاأبقي هذا الحكم بدون تمييز على جميع الجنسيات المتنازعة كالالمان في هنغاريا ، والبوهيميا والاميركيين في هاواي كالسلوبك الشمالية والبولونيين في بوزن وكالرومانيين في ترنسلفانيا وكالايطاليين في طارانت . فخمسة الملايين من المجر في

هنغاريا الحق بضع الاحد عشر مليوناً من الشعوب الاخرى بضيعة المجر بة ثم يكون الفتح الذي بدئ به سنة ٨٨٤ من عهد ارباد [١] ولكن الالمانيين والسلافيين والرومانيين في هنغاريا نفس الحق في الدفاع عن انفسهم وان لهم يوماً على المجر وترسوا عهم جنسيتهم فليس لهم الا ان يقاوموا ماجياً لهم القدر الذي قادهم منذ الف عام الى النزول في بلاد اجنبية كادوا يحتربون فيها عيانهم . ولنشبك ايضاً اطق بتأليف دولة مستقلة لا يقبلون فيها احداً من الالمان وهكذا يستبعدون عنها دواعي الدامية التي حدثت في مارش وفي الجبال البيضاء ولا ان ايضاً الحق بان يقاوموا بقوى اشد من اقوى التشيك ويصنعوا حرباً ثالثة تجعل لهم انهم خير اقوياء على فتح بلاد حولهم منذ الى عشر قرناً دون مقاومة .

. . .

لا بد لاوربا ان ترى مرجل الجنسيات يفجر الفجاراً عظيماً هائلاً عندما يأتي دور تصفية الحساب . والفرق المتعذرة من كل شعب اما ان ترجع الى اصلها مختلف حوله واما ان تستسرخه وتبقى جاهدة فتدمر بعوته . ان الشعوب التي تتبدها . وصير الشعوب الصغيرة التي اكتسحت بالاتحاد مع غيرها الى الزوال ان لم يكن لها من قومها عضد قوي يساعدها على البقاء امام حيرانها الاقوياء . هناك لا تثبت الا الامم الكبرى ، ومن الامم الصغرى من تستطيع تأسيس دولة مستقلة بطرد او نحو سائر العناصر الاجنبية التي تعيش بينها

وقد لا يبقى القرن العشرون قبل ان يشاهد ختام هذا المشهد التاريخي . بل سترى اوربا منذ الآن الى ذلك اليوم العصيب شروراً كثيرة ودماء مهدورة ومظالم عديدة وقساوة بربرية فستمحى شعوب وتمحق قواه بدون رحمة ولا شفقة . ويبدو امام هذا التسافل البشري مظاهر شجاعة عالية واعتراف الذلال يخضعون ادبياً بدون مقاومة وهناك اطلال بشريون كأس الردى مريحة بالعز والشرف . وبعد كل ذلك تجتمع الامم الباقية بحقوقها الوطنية لا يرون فيها غير اسمهم . انها لنظرات مرعبة تتراءى لنا لكنها قد تجيب من استعد لتحمل قسوة قانون الحياة الحياة حياة وقوة الحياة تكتسب الحق فيها . وهذا القانون سار على الشعوب سير الافلاك كما هو سار على

[١] ارباد الفاتح مجري توفي عام ٩٠٧ وهو رأس السلالة الملكية المسماة باسمه التي انقرضت عام ١٣٠١

المكروبات في مياه المستنقعات وهو جار ايضاً في الشعوب يدير مقاديرها ادارة لا تقوى على تغييرها شريعة غاشة ولا سياسة قادرة ولا مصلحة ملكية ولا حيث انذال ولا تلاعب لؤماء

ولقد تدمع عين ذي العاطفة حينما يرى شعباً يجود بنفسه . اما ذو العقل فيعترف بان هذا الشعب هلك لانه لم يكن ذا قوة تكفيه للحياة ثم يخضع هذا الشعب بين الاشكال البيولوجية (الحيوية) المغلوبة على امرها والتي مر عليها دهور الكون .

نقد كتاب البنين

لا تجاوز الكتب العلمية التي عربت في سورية منذ انتشار حرية المطبوعات عدد الانامل وكتاب البنين تأليف اول دومس من رجال السياسة الفرنسوية هو من انفع الكتب ولذلك احسن عبد الغني افندي العريسي احد اصحابي جريدة الفيد في نقله الى هذا اللسان العربي وقد قدمه الى رفيق بك العظم فقدم له صديقنا هذا مقدمة في علم الاخلاق عند العرب وذكر بعض ما كتب فيه المؤلم وعرب فيه حديثاً الى لغتهم اجاد فيها كل الاجادة

والكتاب تأليف رجل مجرب الامور فقال عن تجربة اكثر مما يقول عن علم نظري قسمه الى أبواب الباب الاول في الارادة والملكة والواجب والاقدام والسعي والعمل وتهذيب الاخلاق والعدل والاحاء والحرية والنصائح وتهذيب العقل وتأثير الاخلاق في الجسم الباب الثاني في ذوي القربى والارحام والمحبة والوداد والزواج والبنين والسعادة والثراء ونقص الانفس الباب الثالث في الديموقراطية والدستور والواجبات الوطنية والمساواة في الحقوق وانواع الحرية والتعليم والتعاون وتدارك البؤس الباب الرابع في حب الوطن والمفسطائيين وهذه الامة وقوى الوطن والحرب والجنس البشري

ولا نعلم الطريقة التي جرى عليها المعرب ان الكتاب الاصلي غير موجود لدينا لنقابل بين الاصل والفرع ولم نره منذ عربناه يوم صدوره مقالة في السنة الاولى للمقتبس على سبيل التمرين ثم رأينا مجلة أنيس الجليس في الاسكندرية قد عربته